قوس الازمة بعد العراق: تشوش واضطراب من البحر الابيض المتوسط لشبه القارة الهندية (2 من 2):

العالم بحاجة لقيادة واعية تستطيع التفريق بين الوان الطيف الاسلامي ولا تحول كل منافس الى عدو قاتل

امريكا تخلت عن دعم صديقها السنيورة في حرب تموز لصالح حليفها الاستراتيجي اسرائيل

الامير مولاي هشام بن عبد الله*

هذه ورقة، محاضرة اعدها مولاي هشام، الباحث والاكاديمي المغربي وأحد اعضاء العائلة المالكة تقدم رؤية تحليلية عن الوضع في العالم الاسلامي والعربي من المتوسط، حتى شبه القارة الهندية، وفيها اضاءات على محاور الازمة التي صنعتها امريكا في المنطقة خاصة بعد غزو العراق وسيناريوهات امريكا لمواجهة ايران، وخسارتها للرأي العام في هذه المنطقة، وصور القوى اللاعبة والجديدة في المنطقة. ويقدم الكاتب هنا رؤية عن اثار التفكير التسيدي، والمتغطرس الذي حمله دعاة المحافظين الجدد والذي انقلب عليهم، فالفوضى الابداعية تحولت الى الغوص في وحل العراق. ويركز الكاتب هنا على ثلاث عقد في قوس الازمة، وهي العقدة العراقية ـ الايرانية، والفلسطينية – اللبنانية، والافغانية ـ الباكستانية. «القدس العربي»

■ دفعت الولايات المتحدة ثمنا باهظا جراء الدور الذي لعبته في هذه الحرب. وكان منظر رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة وهو يبكي مناشدا الولايات المتحدة التدخل ومنع اسرائيل من تدمير بلده، والرد البارد الذي تلقاه من امريكا، يمكن ان يكون نقطة تحول في علاقات امريكا مع العالم العربي، موجهة ضربة للادعاء الامريكي عن الوسيط العادل. حركة الرابع عشر من اذار (مارس) التي انطلقت من خلال دعم امريكي لـ«ثورة الارز»، وتم الترحيب بها باعتبارها الاصلاح الديمقراطي الذي أملت من خلاله امريكا تعزيزه في العالم العربي. كان السنيورة صديقا لامريكا كأي رئيس وزراء لبناني قبله، ولكن في وجه الرغبة الاسرائيلية لتلقين لبنان درسا، فلن يحصل السنيورة على الدعم الامريكي.

بكلمات اخرى، ادارت الولايات المتحدة ظهرها لزعيم صديق يمثل ديمقراطية هشة ـ دولة لم تكن تمثل تهديدا لامريكا او اسرائيل، من اجل دعم الهجوم الاسرائيلي الشامل. ولم يصدر عن امريكا او اي سياسي بارز اي انتقاد للعدوان الاسرائيلي. كما حجبت اي محاولة لوقف اطلاق النار، وسارعت الى تزويد اسرائيل بشحنات اسلحة جديدة اثناء الحملة. كان عميقا الانخراط الامريكي لدرجة انها سمحت للاسرائيليين كي يستخدموا مخزون الاسلحة الامريكية والمعدات التي خزنتها في اسرائيل – على افتراض قيام القوات الامريكية باستخدامها في حالة الطوارىء ـ في هجماتهم على لبنان. كما ضاعفت امريكا من المخزون الطارىء، على ان تقوم اسرائيل باستخدامه في هجمات يرغبون باطلاقها في المستقبل، كما قدمت امريكا لاسرائيل مساعدة اضافية (4.5 مليار دولار) كضمانات لمساعدة اسرائيل دفع مستحقات حرب الصيف الماضي1.

اسلحة امريكا كانت من ضمن ثلاثة مليون من كتل القنابل العنقودية التي اسقطت على لبنان، تم اسقاط 90 بالمئة منها في الـ72 ساعة الاخيرة من الحرب، وعندما كان الجميع يعرفون ان وقف اطلاق النار بات محتوما، حتى ان قائدا اسرائيليا اعترف قائلا « ما قمنا بعمله كان جنونا ووحشية، قمنا بتغطية بلدة كاملة بالقنابل العنقودية»2.

هذه السياسات قد تمر بدون ان يعلق عليها او يبثها الاعلام في الولايات المتحدة الامريكية، ولكنها تبث وتناقش بشكل واسع ومفصل في الاعلامين الاسرائيلي والعربي. اخشى انه بعد هذه الحرب فانه سيكون من الصعوبة بمكان اقناع العالمين العربي والاسلامي/ وليس فقط العالمين العربي والاسلامي/ ان الولايات لن تقوم بخيانة حليف ظاهر، وتجاهل مبدأ يزعم انه من اجل دعم اسرائيل في اي عمل ترغب بالقيام به.

النتيجة هذه لم تكن تعبر فقط عنما وصفه السنيورة بانها «تدمير لا يمكن تخيله للبنية التحتية المدنية في لبنان»3، ولم تكن فقط ضربة لموقف امريكا ووضعها في الشرق الاوسط، انها ايضا، كانت بمثابة اضعاف لحكومة السنيورة نفسها. فحزب الله يطالب الان بدور اكبر في «حكومة الوحدة الوطنية» في «ثورة ارز» معاكسة يقوم حزب الله بتنظيم مظاهرات شوارع سلمية وضخمة ومنظمة، في تقليد ساخر لاساليب وتكتيكات قام بالثناء عليها وتشجيعها الغرب والولايات المتحدة. صار من السهل على حزب الله ان يصور السنيورة كرئيس وزراء ضعيف وغير قادر على الدفاع عن امة من تغطرس اسرائيل وداعمتها امريكا. في سياق الصراع الداخلي على السلطة وضمن مفهوم «ليست معنية بالظهور بمظهر من يدعم طرفا على اخر» تقوم الولايات المتحدة الان بمضاعفة دعمها للجيش اللبناني، الذي كثف عمليات تجنيد وتنظيم افراده من السنة والدروز اللبنانيين4. منطق الولايات المتحدة من كل هذا هو تعزيز قوة الجيش ليكون قادرا على نزع اسلحة حزب الله. ومن هنا فسيكون بمقدور حزب الله ان يتهم قائلا ان هذا سيساعد على خلق ظروف لاندلاع حرب اهلية، ويظهر امريكا وحكومة السنيورة لا يمانعان من استخدام الجيش ضد المواطنين اللبنانيين وليس الدفاع عنهم ضد الغزاة الاجانب.

هزيمة اسرائيل

النتيجة، التي اجادل لصالحها، هي ان هجوم اسرائيل على لبنان، مع انه خلف وراءه الدمار الكبير، لكنه انتهى بهزيمة، وكما هو واضح كان هزيمة سياسية، خارج اطار الخطاب السياسي الضيق الامريكي، فقد نظر لاعمال اسرائيل باعتبارها عدوانا شائنا. وبالنتيجة تبدو اسرائيل الان معزولة في المنطقة وفي العالم. وكانت هذه اول هزيمة لاسرائيل منذ امد طويل، فقد امتلك حزب الله معلومات استخباراتية وتكتيكات احسن، فلم يفقد حزب الله القدرة على التواصل مع افراده ، او مواصلة بث الرسائل عبر التلفاز والراديو للمواطنين اللبنانيين بشكل عام، او تكبيد الغزاة خسائر كبيرة5.

ولم يكن بوسع الاسرائيليين تحقيق اي من اهدافهم، من نزع اسلحة حزب الله او اطلاق سراح الجنديين اللذين اسرهما مقاتلو حزب الله.

والسؤال الماثل الآن امام اسرائيل فيما يتعلق بلبنان، كما هو مع امريكا في العراق، هو ان كانت اسرائيل وامريكا ستقبلان بالهزيمة، او من خلال مضاعفة القوة العسكرية لتحقيق بعض اهدافهما، او حتى ارجاع بعض القدرة على الردع. هل هذه الهزائم هي نذر الجيل الرابع من الحروب؟ او انها نكسات مؤقتة قابلة للاصلاح عبر استخدام قوة فاعلة وجديدة. هناك شيء واحد مؤكد: ان نموذج الحرب في صربيا وحرب الخليج باعتبارهما انتصارات مجانية وخالية من الضحايا، التي تتحقق عبر استخدام القوة العسكرية ذات التقنية العالية. هذا النموذج لم يعد قائما. فالمعارك الجديدة هي كلها عن السيطرة والتحكم الطويل بالسكان والحصول على ولاءاتهم. في هذه النزاعات، لم تعد القوة الجوية ايا كانت قدرتها على التدمير قادرة على تحقيق النصر الحاسم، ولا الاستقرار الدائم، وثمنها باهظ.

ان تدمير البنية التحتية المدنية للبلد، وزعزعة الانسجام الاجتماعي والسياسي له، وخلق ديناميكية تقود الى الصراع الطائفي والحرب الاهلية: خاصة انه عندما تم تفعيل هذه الديناميكية في العراق، تركت اثارا رهيبة غير متوقعة. وعندما يتم وضع نفس العناصر في لبنان فاننا قد نعتبرها مصادفة، وعندما يتم الكشف عن نفس الديناميكية في سياق سياسي ثالث وفي نفس المنطقة، فلسطين، سيطلق عليه الكثير من المراقبين بانه تحول لنمط، هذه على الاقل ملاحظات عرضية في هذا الاتجاه.

غيتو قذر محاط بسياج كهربائي

ان الوضع في الاراضي الفلسطينية هو كارثة انسانية على قاعدة كبيرة، كارثة يمكن ان تؤدي لمفاقمة الازمة وتوسيعها التي يتم اذكاؤها الان في لبنان والعراق. يعتقد الاسرائيليون ان من حقهم القيام بما يرغبون عمله في الاراضي الفلسطينية، ومنذ «فك الارتباط»، الذي اقامت اسرائيل الدنيا واقعدتها حوله، عامل الاسرائيليون غزة على انها ليست الا منطقة «حرة» للقصف واطلاق النار. ومنذ انتصار حماس في انتخابات كانون الثاني (يناير) انضمت امريكا واوروبا الى اسرائيل لتجويع واجبار الفلسطينيين على رفض حكومتهم المنتخبة ديمقراطيا. النتائج الواضحة لهذه الحملات كانت انهيار النظام الاجتماعي والانحدار نحو دوامة الحرب الاهلية. وكما صور كاتب صحافي امريكي ذكي الصورة الفظيعة لما يحدث:

«يعيش الفلسطينيون في غزة داخل غيتو مكتظ وقذر، محاطون بالجيش الاسرائيلي وسياج كهربائي ضخم، ليس بامكانهم الخروج او الدخول للقطاع ويتعرضون يوميا للهجمات. الجهود الاسرائيلية المحكمة لتدمير النظام والقانون وتعزيز الفوضى والجوع الرهيب، واضحة في شوارع مدينة غزة، حيث يمر الفلسطينيون من جانب انقاض وزارة الداخلية الفلسطينية، ووزارة الخارجية والاقتصاد الوطني، وتعرض مقر رئيس الوزراء وعدد اخر من المؤسسات التعليمية لقصف جوي اسرائيلي. وتم مسح وتدمير محطة توليد الطاقة الكهربائية التي تزود القطاع بنسبة 45 بالمئة من الطاقة الكهربائية، وحتى شبكات الكهرباء والمحولات البدائية لم تسلم من القصف المتكرر. وتم تدمير ستة جسور تربط مدينة غزة ببقية اطراف القطاع، ومحيت معها الكثير من شريانات الحياة. وبنفس السياق تنحدر الضفة الغربية الى ازمة بمستوى ما يحدث في غزة. ماذا تعتقد امريكا واسرائيل انهما ستحققان عندما تحولان غزة والضفة الغربية الى نسخة مصغرة عن العراق، هل تعتقد انه من خلال خلق «كابوس هوبسي» (نسبة للفيلسوف هوبس) للفلسطينيين يمكن ثنيهم عن الارهاب، والحد من العمليات الانتحارية وتعزيز السلام»؟6.

الامل هو ان لا تصبح فلسطين او لبنان نسختين مصغرتين عن العراق، الا ان الاشكال واضحة، ففي تحايل واضح وهو ما اثار اهتماما في الاعلام الاسرائيلي، تقوم الولايات المتحدة بمساعدة اسرائيلية بتزويد قوة 17 في غزة المرتبطة برجل فتح القوي محمد دحلان باسلحة متقدمة، وبحسب المسؤولين الامنيين الاسرائيليين والفلسطينيين، فقد ادت شحنات الاسلحة الى تنافس المتسلح من جانب حماس»7.

ايا كانت النية، فمنطق الانقسام الاجتماعي والحرب الاهلية يتكشفان عبر السياسة الامريكية في ثلاث مناطق كانت اسرائيل تعتبرها مناطق «مقاومة» تقف في وجه طموحاتها. فقد دعت الورقة الشهيرة التي اعدت عام 1996 لرئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو والتي كتبها عدد من المحافظين الجدد الذين شكلوا السياسة الامريكية في عهد بوش الى تحول واضح «نظيف» من الشعار المعروف «سلام شامل» لمفهوم تقليدي يشير الى استراتيجية تقوم على توازن القوة، واوصت ان هذا يتم تحقيقه من خلال ازاحة صدام حسين عن السلطة في العراق ومواجهة قوية مع حزب الله وسورية وايران، وبشكل عام زعزعة والحد من التهديدات الخطيرة ـ وفيما يتعلق بهذه الاستراتيجية فقد انجزت المهمة، واذا كانت الورقة «تحول نظيف او واضح» قد دعت الى زعزعة التهديد الفلسطيني من خلال رعاية بدائل عن سيطرة عرفات القوية على المجتمع الفلسطيني، فهذه الاستراتيجية تحتاج اليوم الى اعادة تسليح فتح ضد الخيار الذي قامت (الاستراتيجية) بتعزيزه8.

استراتيجية الدمار

قوام الاستراتيجية هو زعزعة الاستقرار، ومن المفهوم انه يوجد داخل المركز المتشدد في الصهيونية اليمينية من يعتقدون انه يجب اخضاع الفلسطينيين في الداخل او ترحيلهم من كل الاراضي الفلسطينية التي تريد اسرائيل السيطرة عليها، والذين يعتقدون ان هذا ممكن التحقيق لو تم اضعاف كل جيران اسرائيل المتمردين بمن فيهم الفلسطينيون بحيث يفقدون القدرة على المقاومة. وهذا مفزع، مع انه ليس مثيرا للدهشة، رؤية هؤلاء المتشددين يحتلون مواقع جديدة في الحكومة الاسرائيلية، انه امر صادم، ومجرد التفكير ان الولايات المتحدة ستسير، علاوة على ان تضع نفسها في مقدمة الداعمين لهذه الاستراتيجية المدمرة والتي تحمل دمارا ذاتيا من اجل مواصلة الدفاع عن مفهوم مضلل لما يعنيه ان تكون صديقا لاسرائيل.

ومع ذلك تبدو هذه الاستراتيجية في بعض الاحيان التفسير الوحيد، اكثر من كونه عجزا كبيرا غير واضح، لسلسلة من القرارات المتناقضة وذات الاثر السلبي التي اتخذتها الولايات المتحدة، وان امريكا تتبنى هذه الاستراتيجية، او يظهر للكثير من الناس ان امريكا تبنت هذه الاستراتيجية، هو اكبر امر مثير للقلق اليوم في العالم العربي والاسلامي، وليس فقط في العالمين العربي والاسلامي ـ واذا كان هذا صحيحا فانها ستكون اكبر تهديد على العالم اليوم. ويجب هنا التأكيد على ان اتباع هذه الاستراتيجية هو على الاقل خطير للولايات المتحدة واسرائيل مثل خطورته على اي من الاهداف، والاصدقاء لا يساعدون بعضهم على تدمير انفسهم.

وامريكا بحاجة ملحة لمناقشة هذه الامور بشكل مفتوح، وان تفهم ان دعمها غير المشروط لاسرائيل لا يصب في مصلحتها او مصلحة اسرائيل، ولمنعهما من الانحدار نحو هذا الطريق، واذا كانت امريكا، فعلا صديقة لاسرائيل، فعليها ان لا تقاوم فقط اي دعوة للسير في هذا الطريق، بل عليها ان تضع كل المعوقات السلمية الكفيلة بمنع اسرائيل من الانحدار لهذا الطريق. وكما اشار الى هذا معلق اسرائيلي:

سياسات اسرائيل لا تشكل تهديدا على الفلسطينيين فقط ولكن على الاسرائيليين انفسهم، دولة يهودية لا يتجاوز عدد سكانها 7 ملايين (منهم 5.5 ملايين يهودي)، ومحاطة بمئتي مليون عربي تقوم بوضع نفسها في مواجهة عدائية مع العالم الاسلامي كله، ولا يوجد اي ضمان من ان هذه الدولة ستبقى ـ انقاذ الفلسطينيين يعني انقاذ الاسرائيليين ايضا9.

على اسرائيل ان تختار، هل ستحقق اسرائيل الامن في المنطقة عبر اجبار جيرانها على الاعتراف بسيادتها، عبر الاستخدام الدائم للقوة العسكرية، المشفوعة بالدعم المالي والعسكري غير المحدودين من القوة العظمى الوحيدة في العالم؟ او انه تحقيق امنها من خلال انشاء علاقات احترام متبادلة مع جيرانها؟ تبدأ مع الفلسطينيين. الخيار الاول، يقتضي عمليات ضغط سياسي ولوبي للسياسيين الامريكيين ومراكمة اسلحتها النووية والتقليدية من اجل ابقاء جيرانها ضعافا. اما الخيار الثاني فيقتضي الاعتراف بالظلم الذي ارتكب ضد الفلسطينيين والاعتراف بحقوقهم والتفاوض حول حدود عادلة وآمنة بناء على القانون الدولي، وتخفيض مستوى العنف من خلال التفاوض على تخفيض عمليات التسلح، بما في ذلك التخلص من اسلحتها، ومنع ترسانات الاسلحة. الخيار الثاني قد يكون صعبا بالنسبة لاسرائيل كي تتساوق معه، لكن الخيار الاول وهو المفضل لاسرائيل منذ عقود، قد استنفد حياته واستخداماته النافعة.

افغانستان. الباكستان

اذا كانت الولايات المتحدة تحصد دوامة الهزيمة والنقمة، التي جاءت بسبب افعالها، فبعيدا في الشرق على طول قوس الازمة، فانها (الولايات المتحدة) تواجه نكسة اخرى، حرجة ومحرجة. فمحاولة التقليل من تماسك عدوها، والتبسيط في فهم التحديات الثقافية والسياسية لبلد اكبر واكثر كثافة سكانية من العراق، والاستعداد لتحويل الانتباه نحو جبهة اخرى الى اتجاه، في الوقت الذي تعتمد فيه على قوة اقليمية اخرى لها اجندة معقدة وغير متطابقة، فان امريكا وحلف الاطلسي (الناتو) يواجهان تحديا كبيراً في افغانستان.

بعد هجمات ايلول (سبتمبر) 2001 لم يشكك احد بحق امريكا بملاحقة اسامة بن لادن والقاعدة من خلال القوة، والقرار بالاعلان عن حملة عسكرية واسعة بمساعدة الناتو من اجل اعادة تشكيل سياسة بلد، امر محفوف بالكثير من المشاكل، فالنجاح يقتضي نصرا عسكريا حاسما، يتبعه التزام مالي وسياسي دائم من اجل تحقيق الاصلاح الاجتماعي. هذه الاستراتيجية تعتمد ايضا على شركاء صادقين ومحترمين محليين والملتزمين بشكل متساو بالاصلاح الاجتماعي.

في الواقع اعتمدت الولايات المتحدة على امراء الحرب من اعضاء التحالف الشمالي من اجل تحقيق نتائج سريعة في الميدان، وقامت باستيراد رئيس من اجل «رصف» حكومة مركزية في كابول. كان امراء الحرب حلفاء متقلبين، حيث اعطى فسادهم وقسوتهم مصداقية لطالبان، ولم يكونوا هم او كرازي بقادرين على تبرير تواصل العمليات العسكرية الغربية على انها جزء من اجندة جذابة وذات معنى للم شمل الجماعات القبلية المستقلة والولاءات الاثنية التي تميز الوضع الافغاني.

وما ادى لسوء الوضع ايضا هو فشل الولايات المتحدة في التخلص من القادة البارزين في القاعدة او طالبان، وقامت امريكا بتحويل قوات مهمة كانت تلاحق بن لادن للعراق في لحظة حرجة. وكان واضحا، انه على الرغم من صلتها الواضحة بهجمات ايلول (سبتمبر) والحرب المعلنة على الارهاب، فان امريكا اعتبرت افغانستان بلدا ثانويا من ناحية الاهمية. وقد تجاهل الاعلام الامريكي افغانستان مفضلا العراق عليها، كما ان التقدم او عدمه لم تتم تغطيته بشكل عام في الاعلام الامريكي.

ونتيجة لذلك واصل بن لادن والظواهري اصدار اشرطة الفيديو، كما ان اتباع طالبان الذين حافظوا على علاقات جيدة مع قبائل البشتون على طرفي الحدود بين افغانستان والباكستان اعادوا تنظيم صفوفهم بقوة، وصاروا يمثلون تهديدا حقيقيا لقوات الناتو. فقد قام الفرنسيون بسحب احسن قواتهم من افغانستان، وليس معروفا كم هي المدة التي سيحافظ فيها حلف الناتو والدول الاخرى على قواتهم، او ماذا ستكون فاعليتهم او اثرهم على الوضع. وجود قوات محجوزة في المعسكرات بدون مساهمة في ادارة البلاد، وتخرج فقط من اجل تنفيذ هجمات وعمليات عسكرية، يؤدي لخلق وضع سياسي وعسكري غير محتمل مما يعني بقاء المبادرة في يد طالبان. فقد ذهب وزير الخارجية الباكستاني لحد ان يطلب من الناتو الاعتراف بالهزيمة ومغادرة افغانستان10.

مولاي هشام

لعبة الباكستان

ان المحاولة الامريكية الخرقاء للتخطيط او هندسة معركة تبدو نبيلة (مقنعة) وسهلة بينها وبين القاعدة تعثرت ليس في تعقيدات السياسة القبلية وسياسة امراء الحرب، ولكن في لعبة خطيرة ومعقدة تلعبها الباكستان مع الاصولية الاسلامية. فمنذ عودة الحكم العسكري للباكستان، تبنت الحكومة الباكستانية ومخابراتها (اي اس اي) الاصوليين الاسلاميين وحاولتا السيطرة على عدد من الراديكاليين الاسلاميين لتحقيق اهدافهما الخاصة. فطالبان التي تجمع بين الهوية القبلية البشتونية والهوية الاسلامية، نظر اليهم كسلاح جيد ضد القوميين البلوش والتأثير الايراني. فايران التي كانت تعارض طالبان قدمت دعما تكتيكيا للامريكيين والتحالف الشمالي بعد ايلول (سبتمبر) وتساعد في اعادة اعمار البنية التحتية في افغانستان11. ومن هنا فباكستان قلقة من تزايد هذه القوة «اللينة» لايران، طبعا، يظل مصدر الباكستان الرئيسي هو الهند وكشمير. ومن هنا تنظر الباكستان للجماعات الاسلامية المحلية ودعمها للقضية الكشميرية، وتنظر لحلفائها طالبان بدون القاعدة كمصدر لعمق استراتيجي ضد جارتها الهندوسية القوية. بالنسبة لـ(اي اس اي) والمؤسسة السياسية فقد اضحى التحالف مع الاسلاميين جزءا بنيويا في الاستراتيجية الاقليمية، وخلال الحرب ضد السوفييت فقد نوسبت هذه الاستراتيجية بشكل جيد في الاجندة الامريكية والمقاومة الافغانية، اذ كانت النخبة السياسية والعسكرية واثقة ان الهيكلية التقليدية والاجتماعية قد تتعايشان وتتحملان المدارس الاصولية التي كانت تنمو حولهما.

وقد اصبح الامر صعبا لممارسة اللعب على طرفي السياج معا في الوقت الذي اصبح ينظر فيه لامريكا باعتبارها غازية ومحتلة لافغانستان واماكن اخرى في العالم الاسلامي. فقبل عشرين عاما كانت امريكا قادرة على تحويل الباكستان كأداة لاستخدامية الراديكالية الاسلامية. وتشعر اليوم الباكستان بصدمة واثر كل ضربة توجهها امريكا للعالم الاسلامي، واي فشل امريكي في هزيمة طالبان بدون حرب طويلة مدمرة وفشلها في كسب قلوب وعقول المسلمين في افغانستان والباكستان فان هذا سيضعف النظام الموالي لامريكا في الباكستان نفسها.

وعليه تحاول الباكستان اقناع الناتو والحكومة الافغانية للاعتراف بحتمية وجود «طالبان معتدلين» داخل افغانستان، وتخلت عن سيطرتها على اقليم من اقاليمها – شمال وزيرستان ـ لطالبان. طبعا فان هذا يهدد بخلق قاعدة يمكن ان يستخدمها طالبان غير معتدلين لتوجيه ضربات لقوات الناتو في افغانستان، كما انها تعطي القاعدة والجماعات المتفرعة عنها ملجأ آمنا لاستيراد وتصدير المقاتلين والتكتيكات من العراق وغيره. فقد اصبحت الصلة الافغانية – العراقية عبر القاعدة حقيقة واقعة، فالعمليات الانتحارية التي لم يكن الافغان يعرفونها في الماضي هي احدى التكتيكات التي تم استيرادها من العراق. ربما سنشاهد ما يمكن تسميته «تقعيد باكستان» و «بكسنة القاعدة».

في مشهد يظهر حجم السيطرة التي يملكها كلا الطرفين، كرازي يشجب مشرف الذي يشكو هو الاخر من عدم قدرته على عمل المزيد لمواجهة القاعدة. ومن هنا فان اي هزيمة امريكية في افغانستان ستحمل في طياتها كل عناصر زعزعة الاستقرار لباكستان، وقد لا يصل الى درجة الوضع الذي وصل نقطة اللاعودة كما في العراق ولكن الوضع في الباكستان يتدهور بشكل واضح، وكل جندي ورصاصة ودولار تستثمره امريكا في العراق سيزيد من تدهور الاوضاع.

بعبارات قصيرة ، نستطيع القول ان هناك قوس ازمة يمتد من المشرق العربي الى شبه القارة الهندية، ولا يستطيع احد التكهن بالطريقة التي سيتم فيها نزع التوتر والازمة في المستقبل القريب. سيتم اتخاذ قرارات في الاشهر القادمة التي قد تسهم في مفاقمة الازمات هذه، وقد تنذر بالتحول نحو خيار اخر، اي قرارات هادئة وعقلانية.

ومن اجل السير في هذا الاتجاه، هناك حاجة لقيادة في الغرب تفهم، ان القاعدة، البعث، حزب الله، حماس، سورية وايران لا يمكن اختصارها واختزالها في المصطلح الايديولوجي «ارهاب الشر». نحن بحاجة لقيادة قادرة على فهم الصلات، وتفكيك الروابط ونزع الفتيل من عناصر كل الازمات. نحن بحاجة لطرف، مثلا، مستعد للتعامل مع سورية، الدولة التي لا تهدد الولايات المتحدة، وقد ساعدت امريكا في عدد من المناسبات، فلسورية مصالحها الوطنية الخاصة في اللعبة والتوصل لعقد صفقة حول الجولان التي هي ارض سورية، فاستمرار الاحتلال الاسرائيلي للجولان لن يجلب اي نفع على الولايات المتحدة. وبنفس الاتجاه، «فهم» مع حزب الله في لبنان، وحماس في فلسطين، الجماعتين اللتين تنطلقان في مواقفهما من اسس مبدئية تعبر عن مصالحهما الوطنية الخاصة، ونيابة عن المجتمعات التي تنتشران فيها كما انهما، حماس وحزب الله، تعبران عن الكثير من مظاهر الظلم المشروعة، ولا يوجد بينهما من جهة وبين امريكا من جهة اخرى، اي تعارض او مواجهة عندما يتعلق الامر بمصالح امريكا الوطنية. ويمكن والحالة هذه، للولايات المتحدة سحب الكثير من الموضوعات من على الطاولة والتمسك بتعزيز مصالحها، بما في ذلك المساعدة في هزيمة المتطرفين الحقيقيين. هذه الجماعات ليست متشابهة، وهي ليست كالقاعدة او جزءا منها، ولو ترك لها الخيار فلن تصبح القاعدة، اكثر مما اصبحت فيتنام اداة في يد «امبراطورية الشر». وفي حالة التحدث معها بهدوء ومساواة فقد تتحول لجماعات معارضة يمكن التحكم بها وادارتها.

لقد اقترحت مجموعة بيكر ـ هاميلتون هذا التغير في الاتجاه، كما دعا الرئيس كارتر الى نقاش مخلص وصادق حول سياسة الولايات المتحدة. ومع ذلك فهذه الاصوات البراغماتية المعتدلة من داخل المؤسسة لقيت معارضة من الفصائل الداعية للعسكرة ومن المحافظين الجدد، والتي يبدو ان لها يدا على الرئيس والكونغرس. ان اصلاح الضرر الذي ارتكب يقتضي اعترافا بالقرارات الخاطئة والتحول نحو احداث تغييرات جدية في الاستراتيجية. وقد تتطلب التخلي عن فكرة ان القرار العسكري من طرف واحد يمكن ان يقدم حلا للمشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة. وفوق كل هذا فقد يقتضي ايضا التخلي عن الشعوب والامم العربية الاسلامية المتنوعة ما هي الا عناصر متداخلة ضمن اطار ايديولوجي واحد، ويمكن التلاعب بها لصالح شخص او شيء آخر، سواء كانت الحاجات الجيوسياسية للقوى العظمى، او مواصلة تقديم الدعم غير المشروط لاسرائيل، او حاجة الغرب الدائمة للنفط.

العالم اليوم يتطلع لمشاهدة ان كانت الولايات المتحدة مستعدة للتخلي عن حربها الايديولوجية لصالح قيادة واعية وذكية/ تفاوض بحذر وعدل من موقع القوة السياسي، مشفوعا بتحرك حقيقي يعبر عن اهتمامات حقيقية. لا احد يطلب من الولايات المتحدة تجاهل الاجندات المتناقضة، ولكن ما يحتاجه العالم من اعظم قوة فيه، هو التوقف عن تحويل كل منافس محتمل لها ـ خاصة في العالم العربي والاسلامي ـ الى عدو قاتل.

* اكاديمي وباحث وأحد اعضاء العائلة الملكية الحاكمة في المغرب
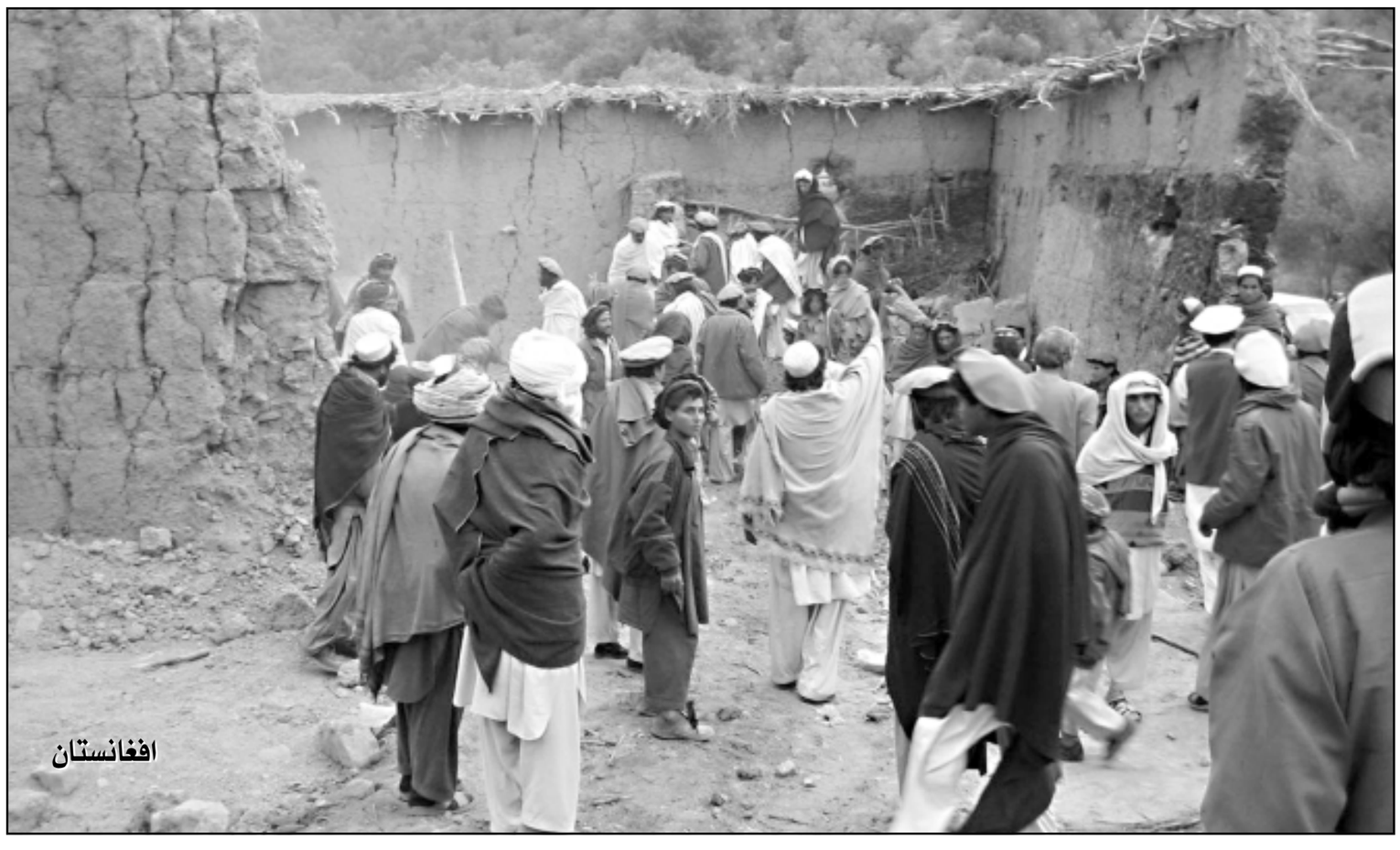
1 US to double emergency equipment" stored in Israel," YNetNews.com, 12 December 2006 (http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3338927,00.html)
2 Meron Rappaport, "IDF commander: We fired more than a million cluster bombs in Lebanon," Haaretz, 12 September 2006. (www.haaretz.com/hasen/spages/761781.html)
3 "Siniora criticises West for failing 'model democracy,'" Gulfnews.com (from Los Angeles Times-Washington Post), http://archive.gulfnews.com/indepth/israelattacks/Lebanon/10054034.html, July 21, 2006.
4 "U.S. Considers New Aid to Lebanese Armed Forces," The Chosun Ilbo (from Voice of America), December 12, 2006 (http://english.chosun.com/w21data/html/news/200612/200612160010.html). See also, Megan K. Stack, "Lebanon builds up security forces," Los Angeles Times, December 1, 2006 (http://www.latimes.com/news/nationworld/world/la-fg-lebsunnis1dec01,0,7181812,full.story coll=la-home-headlines).
5 Alastair Crooke and Mark Perry, "How Hezbollah Defeated Israel, Parts 1 and 2," Counterpunch.org, October 12, 2006, (http://www.counterpunch.org/crooke10122006.html) and October 13, 2006 (http://www.counterpunch.org/crooke10132006.html).
6 Chris Hedges, "Worse than Apartheid." Truthdig.com (http://www.truthdig.com/report/item/20061218_worse_than_apartheid/)
7 Aaron Klein, "US Weapons Prompt Hamas Arms Race?" (www.wnd.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=53411)
8 "A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm," The Institute for Advanced Strategic and Political Studies' Study Group on a New Israeli Strategy Toward 2000, Richard Perle, James Colbert, Charles Fairbanks, Jr., Douglas Feith, Robert Loewenberg, David Wurmser, and Meyrav Wurmser, et. al. (http://www.iasps.org/strat1.htm)
9 Tanya Reinhardt, "Introduction," The Road Map to Nowhere - Israel/Palestine since 2003. (www.zmag.org/content/showarticle.cfm?ItemID=11140).
10 Ahmed Rashid, "Accept Defeat by Taliban, Pakistan Tells Nato," Daily Telegraph (UK), November 30, 2006. (http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2006/11/29/wafghan29.xml)
11 David Rohde, "Iran Is Seeking More Influence in Afghanistan," New York Times, December 27, 2006. (http://www.nytimes.com/2006/12/27/world/asia/27afghan.ready.html?ei=5094&en=5e993b9fa9472987&hp=&ex=1167282000&partner=homepage&pagewanted=all),